إضاءات نقدية (فصلية علمية)

السنة التاسعة – العدد الخامس والثلاثون – خريف ١٣٩٨ش/ أيلول ٢٠١٩م

صص ١٢٦ ـ ٩٥

قراءة لرواية "أسطورة النداهة" لأحمد خالد توفيق فى ضوء المنهج البنيوى التكوينى لغولدمان

رضا ميرزايى (الكاتب المسؤول)*

على رضا شيخى**

المخلص

يعتبر النقد الاجتماعى محاولة لإبراز العلاقة بين المجتمع والأدب، فهناك علاقة متبادلة بين الأثر الأدبى وبين المجتمع من حيث التأثير والتأثر. "أحمد خالد توفيق" من رواد أدب الخوف فى الأدب العربى. إنّه كتب فى التسعينات من القرن الماضى مجموعة ضخمة سميت "ماوراء الطبيعة" فى هذا المجال. ومن الناحية الاجتماعية، اهتمّ توفيق فى مجموعة ماوراء الطبيعة خاصة فى روايته "أسطورة النداهة" ببعض القضايا الاجتماعية المتعلقة بالأرياف المصرية فى القرن الماضى بصبغة من الرعب. ومن هذا المنطلق يرمى هذا المقال إلى قراءة أحداث الرواية اعتماداً على المنهج البنيوى التكوينى النقدى لغولدمان مستخدماً الوصف والتّحليل لمناقشة الموضوع هادفًا الكشف عن معرفة الجوانب الاجتماعية المكنونة فيها. سعي غولدمان فى طريقته النقدية لإقامة علاقة ذات مغزي بين الشكل الأدبى وأهم جوانب الحياة الاجتماعية. ومن أهمّ النتائج الّتى توصّلنا إليها فى دراستنا هذه، أنّ الروائى أحمد خالد توفيق يبحث فى روايته عن سرّ تخلّف المصريين وكيفية مواجهتهم بالعلوم فى عصر تقدم العلوم البشرية ويعتقد أنّ أهمّ المشاكل الاجتماعية فى الأرياف المصرية وهى القضايا المتعلقة بالفقر والعادات الخرافية والحرمان من التعليم. فعلى الرغم أن رواية أسطورة النداهة هى رواية خيالية ولكن تعالج مشاكل المجتمع المصرى الريفى فى التسعينات، بما فى ذلک وجود ظاهرة الخرافة فى الأرياف المصرية، والفقر، والحرمان، ومخاوف تكنولوجيا، وما إلى ذلک وهذا ينطبق عليه الكثير من المكونات وعناصر المنهج البنيوى التكوينى لغولدمان.

المفردات الدليلية: النقد الاجتماعى، الرواية، أحمد خالد توفيق، أسطورة النداهة، المنهج البنيوى التكوينى.

---

*. طالب دكتوراه فى اللغة العربية وآدابها بجامعة الامام الخمينى، قزوين، إيران.
rmirzaie_65@yahoo.com

**. أستاذ مساعد فى اللغة العربية وآدابها بجامعة الامام الخمينى، قزوين، إيران.
alireza.shaikhi@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٨/٢/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٨/٦/٢٩ش

المقدمة

إنّ علاقة الأدب بالمجتمع هى تشـمل علاقـة الأديب بمجتمعه ووعيه لما يجرى حوله وكشفه ما يخصُّ المجتمع وما يخفى على الآخرين. فالأديب يملك القدرة على ربط الماضى بالحاضر وكشـفه وترسيخه لقيم الخير وهذه أمور أساسية فى الأدب ومن أهدافه. يرتبط علـم اجتماع الأدب بعلم الاجتماع من جهة، كما يرتبط بالأدب من جهة أخرى. من ثمّ يعتـبر تحليل العلاقة القائمة بين الأدب والمجتمع أسـاس ظهور النقد الاجتماعى للأدب ويستند هذا المنهج إلى بنية الأدب والمجتمع وهذا يعنى انعكاس القضايا الاجتماعية فى الأثـر الأدبى عن طريق وجهة النظر الفكرية أو الاعتقادية أو الاجتماعية لدى الكاتب. علـى ذلک «لقـد كانت العلاقة المتبادلة بـين المجتمع والأدب موضوعـاً مثيراً لاهتمام الباحثين فى مجال العلوم الإنسـانية منذ أقدم الأيام. وظهرت بواكير الدراسـات المتعلقة بالمجتمع والأدب بشكل منهجى مؤطّر بأطر البحث العلمى، فى آثار مدام دواستال. حيث عالجت فيها تأثير الدين والتقاليد والعادات الاجتماعية والقوانين البشـرية على الأدب كما درسـت تأثير الأدب على المجتمع والثقافة.» (عسكرى، ٢٠١٠م: ٧٣) أما المؤسس الحقيقى لعلم اجتماع الأدب فهو الفيلسـوف والكاتب والناقد المجرى الماركسى جورج لوكاتش. إنّه من عالج العلاقة بين المجتمع والرواية وتأثير الرؤية الاجتماعية لدى الكاتب على الفكرة الأساسية فى الآثار الأدبية. تبعه لوسين غولدمان الذى درس آثاره وأفكاره وجعلها ممنهجة. يرى غولدمان أن الشكل الروائى فى واقع الأمر انعكاس الحياة اليومية فى الساحة الأدبية وهذا يعنى إنّه انعكاس الحياة فى المجتمع المؤسس على الفرد الذى ولد لينتج للسـوق. وعلى حد تعبيره هناک نوع من التناسـق الدقيق بين الشكل الأدبى للرواية وعلاقة الناس مع الآخرين فى المجتمع الذى يتنج للسـوق. كما يعتقد غولدمان «أنّ المبدع فى الآثار الثقافية ليس شـخصاً واحداً بل هو راجع إلى التفسـير الجماعى للحياة حيث إنّ الكاتب يمنحه شـكلاً فنيّاً خاصّاً كفرد من تلک المجموعة.» (غولدمان، ١٩٩٣م: ٣٢١) «كان يـرى ابوليت تين بأنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة مباشـرة وكان يبـدى نوعاً من التزمّت فى هـذا الاتجاه. ففى رأيه يعدّ الأدب انعكاسـاً للتقاليد والسـلوک والأخلاقيات فـى عصر الكاتب. إنّ الآثار الأدبيـة وليدة التعامل بين ثلاثة

عوامـــل وهى: العوامل الحياتية والثقافية والتاريخية. وتبرز العوامل الحياتية فى العنصر؛ أمـــا الثقافية فتظهر فـــى البيئة والعوامل التاريخية تبرز فى الزمـــان.» (رحمانى، ٢٠٠٤م: ١٢٠) لقد كان تين من أوائل النقاد الذين تناولوا العلاقات بين الفنان ومجتمعه، وبينه وبين أقرانه، والطرق التى يؤثر بها على الجمهور فى الحصيلة الإبداعية للفنان. لقد كان موضوع العلاقة بين الأدب والمجتمع قديمًا عند العرب. نرى فى التراث النقدى العربى القديم نقدا للمجتمع وسلوكياته ككتاب "البخلاء" للجاحظ، والحرص على الربط بين المعنى واللفظ الذى نجده عند بشـــر بن المعتمر، وبعض الملاحظات المنتشـــرة فى كتب النقد القديم التى تحث على الربط بين المستوى التعبيرى ومستوى المتلقين. أمّا فى النقد الحديث فنجد بعض الدعوات إلى الاهتمام بالاتجاه الاجتماعى فى النقد الأدبى عند شـــبلى شميل، وســـلامة موسى، وعمر الفاخورى، وقد اقترب هذا المنهج من المدرسة الجدلية عند محمد أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، ولويس عوض. حدثت فى عهد الرئيســـين الســـابقين المصريين أنور السادات وحسنى مبارك التطورات الكثيرة فى المجالات المختلفة من السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية خاصة بعد إتخاذ سياسة الانفتاح الذى ارتبط المصريون بالعالم الخارجى أكثـــر من الوقت الماضى. لعبت هذه التطورات دوراً بارزاً فى دخول مصر إلى الأجواء الجديدة من الحياة السياســـية والاجتماعية والثقافية. كان الأدباء من المتأثرين بهذه الأجواء حيث انسجموا مع هذه التطورات الاجتماعية بل كان لهم إسهام فى خلق هذه التطورات فى المجتمع من خلال الآثار الأدبية ذات الصبغة الاجتماعية والإنسانية. غـــير أنّ أحمد خالد توفيـــق الذى يعدّ من رواد الأدب العربـــى المعاصر فى مجال الأدب الخوف والفانتازيا والخيال العلمى قد استطاع أن يبدع العديد من الآثار التى مرّت بعالم الخيال والخوف ولكن يكون فى ثنايا آثاره مجال لنقد المجتمع ولتصوير المشاكل الموجودة للمراهقين وللشباب ولعرض التقابل بين العلم والتقاليد السائدة فى المجتمع.

أسئلة البحث

يســـعى هذا المقـــال إلى الإجابة على بعض الأســـئلة منها: ١- ما هـــى التطوّرات الاجتماعيـــة الحاصلة فى المجتمـــع أثناء كتابة هذه الرواية؟ ٢-ما هى المشـــاكل التى

حاول أحمد خالد توفيق تسليط الضوء عليها فى روايته؟ ٣-كيف تكون العلاقة بين بنية الرواية والبنية الذهنية العامة للجماعة الاجتماعية أو للطبقة التى ينسب إليها الكاتب؟

فرضيات البحث

وللإجابة عن الأسئلة يمكن الاستعانة بالفرضيات التالية:

شاهد المجتمع المصرى فى ثمانينات و تسعينات من القرن الماضى الكثير من التطورات و الأحداث خاصة الطبقة الوسطى التى تعرفت على أحدث التكنولوجيات العالمية وهذه خلقت أجواء من القلق والخوف وتسهم فى رؤية هذه الطبقة الخاصة من العالم والمجتمع. فإن العلاقة الجوهرية والمتبادلة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبى تهم البنى الذهنية التى تنظم الوعى التجريبى لفئة اجتماعية معينة والكون التخيلى الذى يبدعه الكاتب وإن البنى الذهنية ذات الدلالة ليست ظواهر فردية وإنما ظواهر اجتماعية وإن العلاقة بين الوعى الجماعى والبنية المنظمة للعمل الأدبى متماثلة تماثلا دقيقا إلا أنها غالبا ما تشكل مجرد علاقة ذات دلالة.

الدراسات السابقة

على الرغم من ممارسة "أحمد خالد توفيق" فى كتابة الرواية والشهرة الواسعة التى يحظى بها الكاتب فى مصر والدول العربية خاصة فى مجال أدب الرعب والفانتازيا والخيال العلمى أنه مازال غير معروف كما يستحق فى الأوساط الأكاديمية المتعلقة بالأدب العربى فى إيران ولم يصادف كتّاب المقالة حسب اطلاعهم بحثًا علميًّا حول أعماله الأدبية إضافة إلى ذلک أنّ الأبحاث التى تناولت حياة الراوى وأعماله فى البلدان العربية ليست بكثيرة إلا ما هى وردت فى الصحف والدوريات العربية. بينما أن هناک أبحاثا قليلة تتحدّث عن توفيق، إن موضوع النقد الاجتماعى وتوظيفه فى الروايات العربية واسع ومتشعب وتناولته دراسات عديدة ونعرضها باختصار علي النحو التالى: مقالة "النقد الاجتماعى للأدب نشأته وتطوره" لمحمد خاقانى وآزاده منتظرى ومنصوره زركوب المنشورة فى مجلة إضاءات نقدية سنة٢٠١٢م فى عددها ٦

ومقالة "نقد جامعه شـناختی رمان اوراق عصام عبدالعاطی در مجموعه نیران صدیقه از علاء أسـوانی" لعلی گنجیان ورضوان جمشیدیان المنشورة فی مجلة نقد ادب معاصر عربی سـنة ۲۰۱۵م فی عددها ۹ ومقالة "بررسـی رمان های عربی وفارسـی معاصر از منظر نقد جامعه شـناختی مطالعه موردی الشـحاذ اثر نجیب محفوظ واشک سبلان نوشـته ابراهیم دارابی" لبیمان صالحی وبروین خلیلی المنشـورة فی مجلة کاوش نامه ادبیات تطبیقی سـنة ۲۰۱۵م فی عددها ۱۸ ومقالة "الشعر القصصی عند خلیل مطران فـی مرآة النقد الاجتماعی" لناصر قاسمی وزین العابدین فرامرزی فی مجلة أدب عربی سنة ۲۰۱٦م فی عددها ۱ وأطروحة "الواقع الاجتماعی فی روایة القلاع المتآکلة لمحمد ساری – دراسة بنیویة تکوینیة –" لزواوی کهینة المنشورة لنیل شهادة ماجستیر بجامعة بویره فی الجزائر سنة ۲۰۱٤م وغیرها من هذه الدراسات.

منهج البحث

تم إعداد البحث علی أسـاس المنهج البنیوی التکوینی للوسـیان غولدمان معتمدا فیـه علی المصادر الأدبیة والنقدیة خاصة النقد الاجتماعـی لتحلیل الروایة ونماذجها المختلفة فیه.

نظریة الروایة عند لوسیان غولدمان

المنهج البنیوی التکوینی

یسـتند غولدمـان فی منهجه إلـی إدراک بنیة العلاقات الدخلیـة للنص الأدبی ثم تفسـیرها من خلال ربطهـا ببنیة الواقع الاجتماعی والفکری السـائد. علی أسـاس البنیویة التکوینیة، «کل سلوک وکل فکر یعتبران محاولة لتقدیم جواب دال عن وضعیة محددة یعیشـها أفراد فئـة اجتماعیة معینة بشـکل یجعلهم یصطدمون بنفس المشـاکل والعوائق ویحلمون بنفس المثالات والمطامح، کما أن هذا السـلوک من جهة ثانیة یعتبر محالولة لخلق توازن بین الـذات الفاعلة والموضوع المفعول.» (غولدمان، ۱۹۹٦م: ۱۵) وهذا یعنی أن غولدمان یدعو إلی دراسـة سلوکات الذات الجماعیة وعلاقتها بالوسط الاجتماعی فی إطار المادیة الجدلیة التی تری أن «کل سوسیولوجیا للفکر تقبل بوجود

تأثـير للحياة الاجتماعية على الإبداع الأدبى.» (غولدمـان، ١٩٩٣م: ١٣) لقد حاول غولدمان فى تأسيسـه لنظرية الرواية الربط بين الوسط الاجتماعى وخصائص الشكل الروائـى انطلاقـا من علاقات التناظر التى تجمع بين الكائنـات فى المجتمع الرأسمالى المنتج للسـوق والعلاقات التى يقيمها الناس يوميا بمتلكاتهم ووسـطهم الاجتماعى. (الخطيبى، ١٩٧١م : ١٢٤)

مفاهيم المنهج البنيوى التكوينى

إن اسـتعانة غولدمان فى تصوره وتأسيسـه لنظرية الرواية بحقول وأنساق معرفية متعددة سـاهمت فى إثراء جهازه النظرى بجملة من المفاهيم التى أسـس عليها مقاربته للنصوص الروائية وأهمها:

البنية الدالة:

إن المقصـود بكلمة البنية الدالة أو الدلالية هو المعنى الداخلى لهذه البنية الذى ينم عن وعى جماعى معين. (شحيد، ١٩٨٢م: ٨٠) إن وحدة العمل الأدبى وتماسكه يظهران فى بنيته الدالة التى من خلالها نفهم النسق العام الذى يحكم العملية الإبداعية، كم يرى غولدمان أن الباحث مطالب باكتشـاف هذه البنية وبيان وظيفتها فى إطار كلية العمل ولكن لاينبغى التوقف عنده هذه البنية الدالة المتماسـكة وإنما يتعين إدراجها ضمن بنية أكثر شمولا واتسـاعا وهى البنية الذهنية للجماعة أو بنية الوعى الاجتماعى العام ومن خلال هذه المرحلـة يظهر الجانب التاريخى والوظيفى للبنية الدالة ولذلك نرى أن هذا المفهوم يرتبط ارتباطا قويا مع مفهوم رؤية العالم، ففى الأول نفهم النص ونفسـره وفى االثانى نلم بدلالته التاريخية والاجتماعية. (شعلان، ٢٠٠٨م: ٥٩-٦٠)

الفهم والتفسير:

لقد أقام لوسيان غولدمان قراءته البنيوية التكوينية على مستويين هامين: أولا الفهم وفيه يتناول الناقد البنية العميقة للعمل الأدبى وثانيا التفسـير وفيه يتم النظر إلى البنية الأدبية باعتبارها وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها، كما أن الفهم عند غولدمان يتأسس

على عناصر أساسية وهى: ١- المحايثة: إذ يجب على الباحث أن يهتم بالموضوع ولا شىء غير الموضوع أى أن يلتصق بالضرورة ببنية العمل دون أن يتجاوزها إلى الخارج الموضوعى. ٢- الاهتمام بكل عناصر هذه البنية وإن تعذر ذلك فبأغلبها أى إيلاء للجزء الأكبر من النص أو إذا أردنا لثلاثة أرباعه، بحيث من الصعب تصور فرضيتين لهما نفس الدرجة من البساطة والفعالية. ٣- تحديد العلاقات التى تربط بين هذه العناصر وفهم دلالتها. ٤- استخلاص البنية الدالة إذ على الباحث أن يتوصل إلى العمق الدلالى أى إلى بنية المعنى التى تحرك العمل وتمنحه وظيفة وهذا ما يسميه غولدمان بالدلالة الموضعية. (الأنطاكى، ٢٠٠٩م: ١٣٩-١٤٠) أما المرحلة الثانية التفسير أو التأويل فيتم فيها إدماج هذه البنية الوظيفية ضمن بنية أشمل كالوعى الاجتماعى والطبقى ذلك لأن العمل الأدبى عند غولدمان لا يكتسب دلالته إلا إذا أدمج فى إطار سلوك أشمل منه وغالبا ما لا يكون هذا السلوك الذى يمكن من فهم العمل الأدبى سلوك الكاتب، ولكنه سلوك فئة اجتماعية قد لا يكون الكاتب منتميا إليها.

رؤية العالم:

هو المفهوم الذى استمده من أستاذه جورج لوكاتش إلا أنه تميز عنه بأمرين أساسين وهما: أولا: لقد تمكن غولدمان من نقل مفهوم رؤية العالم من الفضاء اللوكاتشى الفلسفى والفكرى إلى الفضاء النقدى جاعلا منه أهم أداة إجرائية فى منهجه البنيوى التكوينى، وهذا مايوضحه لما بصورة أدق فى كتابه "الإله الخفى" قائلا: «هى ليست معطى تجريبيا مباشرا بل على العكس، أداة عمل إدراكية ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الأفراد، وتظهر أهميتها وواقعيتها حتى على المستوى التجريبى.» (غولدمان، ٢٠١٠م: ٣٨) ثانيا: استطاع غولدمان أن يتجاوز من خلال مفهومه رؤية العالم التحليل الاجتماعى التقليدى للأدب الذى ينظر إلى العمل الأدبى كانعكاس حتمى للبنية التحتية، ويؤسس بذلك نقدا سوسيولوجيا ينطلق من مفهوم الوسيط الذى يجمع بين الأنساق الأدبية والفنية والأساس الطبقى والاجتماعى الذى تنتمى إليه، وهذا ما يشير إليه فى قوله: «إن أية طريقة فى التفكير والإحساس توجد إجمالا بشكل طبيعى خصوصا لدى أفراد

المجموعـات الاجتماعية الذين تتوافق معهم، لكـن الفرد كائن معقد جدا ووظائفه فى مجمل الحياة الاجتماعية كثيرة جدا والتوسـطات بين فكره والواقع الاقتصادى عديدة جـدا ومتنوعة جدار، بحيث لانسـتطيع حصرهـا فى حدود تصور فقـير لعلم اجتماع ميكانيكى تبسـيطى.» (غولدمان، ١٩٨١م: ١٠) إن رؤية العالم عند غولدمان لاتنحصر فى مجموع الأفكار فقط إنما هى تشـمل المشـاعر والأحاسيس الإنسانية المشتركة بين أفـراد الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليهـا العمل الأدبى فهى إذن رؤية جماعية، وهذا ما يكشفه عنه قائلا: «هى تشكل المظهر الأساسى الملموس للظاهرة التى يحاول علماء الاجتماع تعريفها منذ عشرات السـنين بمصطلح الوعى الجمعى.» (غولدمان، ٢٠١٠م: ٣٩)

الكلية والانسجام:

إن العمـل الأدبـى عند غولدمان هـو تعبير موحد ومتلاحم عـن مطامح ورغبات طبقة اجتماعية متجانسـة، فهو بذلك أبعد من أن يكون انعكاسا آليا لوعى جماعى، لذا حظيت مفاهيم التلاحم والكلية والانسجام بمكانة مهمة فى الدراسة البنيوية التكوينية، وهـذا ما نلاحظه فى حديثه عن جمالية التماسـك، قائـلا: «إن العمل الفنى أو الأدبى يكون ناجحا من الناحية الجمالية عندما ما يدل على معنى متماسـك يعبر عنه بشكل مناسب، ويكون المعنى متماسكا عندما يتطابق فيه الفردى والجماعى، علما بأن النزوع إلـى التماسـك يدخل فى صميم الـذات الفردية.» (شـحيد، ١٩٨٢م: ٤٢) على رأيه مفهـوم الكلية وتوظيفاته متعلق بالعمل الأدبى يعتبر بالنسـبة إليه كلا متكاملا متلاحما ومتماسكا وعلى هذا الأساس يجب على الناقد الأدبى أن يبتعد فى رأيه عن المحاولات والمقاربات التجزيئية التى ارتبطت بالتقد السوسـيولوجى التقليدى، ويحاول أن يدرس العمل فى كليته ويبحث فى العلاقات التى تربط بين الأجزاء وتمنحها الكلية.

يجـب علينـا القول إن البنية التكوينية هى أسـاس نظريـة غولدمان الخاصة بالرواية. يسـتمد غولدمان منهجه من آراء جورج لوكاتش والنقد الماركسـى ويبحث هـذا المنهج العلاقة بين المجتمع والعمل الفنى بشـكل دقيـق وممنهج. ومن هذا المنطلق

يمكن أن نفسر البنية التكوينية لدى غولدمان على النقاط التالية: ١- تكون العلاقة بين الحيـاة الاجتماعية والعمل الفنى متعلقة بالوعـى الجماعى. ٢- لا يمكن للفرد (الفنان) وحده أن يكون خالقا للعمل الفنى بل وعى المجموعة أو الوعى الجماعى خالق العمل الفنى. ٣- إن العلاقة بين البنية الثقافية لطبقة اجتماعية والبنية للعمل الأدبى ذات معنى ومتناسـقة. ٤- إن الوحدة والانسجام فى العمل الأدبى ميزتان خاصتان لمنهج البنيوية التكوينية ومن ثم يسـتخدم غولدمان الكلية وهـى تعبيرة موحدة ومتلاحمة عن مطامح ورغبات طبقة اجتماعية متجانسـة. ٥ – إن البنى الحاكمة على الوعى الجماعى والتى تنعكس على عقلية الفنان هى العملية اللاوعية الكاملة.

أحمد خالد توفيق حياته و نشأته

أحمـد خالد توفيق فراج، هو الطبيب والأديب المصرى الذى يعتبر أول كاتب عربى فى مجال أدب الرعب والأشـهر فى مجال أدب الشباب والفانتازيا والخيال العلمى. ولد عـام ١٩٦٢م فـى مدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية فى مصـر. تخرج توفيق فى كلية الطـب بجامعة طنطا عام ١٩٨٥م وحصل علـي الدكتوراه فى طب المناطق الحارة عام ١٩٩٧م. بدأ توفيق كتابة الرواية بسلسلة "ما وراء الطبيعة" عام ١٩٩٣م ورغم أن أدب الرعب لم يكن سـائدًا فى ذلك الوقت إلا أن السلسـلة حققت نجاحاً كبيراً واستقبالاً جيداً من الجمهور ما شـجعه علي استكمال السلسلة، وأصدر بعدها سلسلة "فانتازيا" عام ١٩٩٥م وسلسـلة "سـفارى" عام ١٩٩٦م وأصدر عام ٢٠٠٦م سلسلة "WWW". (عبدالحنان، ٢٠١٧م: ٦٤)

قـام أحمد توفيق بتأليف روايات حققت نجاحًا جماهيريا واسـعًا، وأشـهرها رواية "يوتوبيـا" عـام ٢٠٠٨م والتى ترجمت إلى عدة لغات وأعيد نشـرها فى أعوام لاحقة. اشـتهر توفيق أيضًـا بالكتابات الصحفية، فقـد انضم عام ٢٠٠٤م إلى مجلة الشـباب التـى تصدر عن مؤسسـة الأهرام، وكذلك كانت له منشـورات عـبر جريدة التحرير والعديد من المجلات الأخري. كان له نشاط فى الترجمة، حيث قام بنشر سلسلة "رجفة الخوف" وهى روايات رعب مترجمة، وكذلك قام بترجمة رواية "نادى القتال" الشـهيرة

من تأليف تشـاک بولانيک، وكذلک ترجمة روايـة "ديرمافوريا" لـكريج كليفنجر عام ٢٠١٠م وترجمة رواية عداء "الطائرة الورقية" للروائى الأمريكى من أصل أفغانى خالد الحسـينى عام ٢٠١٢م. (Greenberg, ٢٠١٨:١٧٢) استمر نشاطه الأدبى مع مزاولته مهنة الطب، فقد كان عضو هيئة التدريس واستشـارى قسـم أمراض الباطنة المتوطنة بكلية الطب جامعة طنطا. توفى توفيق فى ٢ أبريل عام ٢٠١٨م عن عمر يناهز ٥٥ عام إثر أزمة صحية مفاجئة.

أحمد خالد توفيق وأسطورة النداهة

أسـطورة النداهة هى رواية الرقم الثانى من سلسلة "ماوراء الطبيعة" للكاتب أحمد خالد توفيق وتعد السلسـلة أول سلسـلة روايـات عربية فـى أدب الرعب التى بدأ إصدارهـا عام ١٩٩٣م. يكون بطل السلسـلة شـخصية خيالية وهـو الدكتور رفعت إسماعيل طبيب أمراض الدم المصرى المتقاعد.

يروى رفعت فى سلسـة مـاوراء الطبيعة ذكرياته عن مجموعـة من الأحداث التى تعـرض لها فـى حياته. بدأت أحداث الروايـة حينما عاد إلى قريتـه كفر بدر إحدي قري محافظة الشـرقية. شاهد فى القرية سلسـلة من الوقائع بداية من أخيه رضا الذى اصيـب بمـرض غير عادى و مجهول. سـأل رفعت عن رضا وتخبره أمـه أنه ليس علي مايرام لأنه لبى نداء النداهة. فيسـترجع رفعت ذكرياتـه عن النداهة، ويذهب إلى دار أخيـه ليفحصـه وتخبره زوجة أخيه نجاة بما حدث له، ليسـتدعي رفعت زملاءه الأطباء لإجراء فحص شامل لأخيه، ويرسل عينة من دمه لتحليلها. ثم يذهب رفعت إلى الدكتور عاصم فتحى طبيب الوحدة الصحية المقيم فى القرية ليستفسر منه عن موضوع النداهة. فيتفـق رفعت مع عاصم علي مراقبة المنطقة المحيطة بدار رضا إسماعيل حتى يسـتطيعا أن يحسـما أمرهما فى موضوع النداهة هذا، وأثنـاء المراقبة يقابل رفعت النداهة ومن رعبـه يهرب منها ويحـذره عاصم من أنه قد يكون الضحية القادمة للنداهة. و فى اليوم التالـى يفاجأ الجميع بأن النداهة تنادي رفعـت، فتحاول عائلته منعه وينجح فى ذلک طلعت زوج رئيفة، ويظل رفعت فى حالة شـديدة البؤس لمدة أسـبوعين إلى أن يرسل

تلميذه علاء عبد الصمد تقريره بشأن عينة دم رضا إسماعيل ليقول أنه وجد نسبة ضئيلة من الباربيتورات ويكتشف رفعت سر اللغز، لكن أهله يرفضون أن يتحرك من مكانه خشية عليه من النداهة. عندما يأتى عاصم وزوجته عواطف يخبرهما رفعت بأنهما وراء موضوع النداهة هذا، حيث يقومان بتنويم المرضي تنويما مغناطيسيا و يجعلانهم أن يلبوا نداء النداهة التى تقوم بشخصيتها عواطف. ثم قام عاصم بإفراغ الحقنة المنوِّمة فى وريد رفعت قائلا: سوف يلتقى بى فى المساء بعد أن يلبى نداء النداهة. و فى المساء يستيقظ رفعت ليجد نفسه تحت رحمة عاصم وعواطف. يخبره عاصم أنه قام بأعماله للأنتقام من سلسلة الاحباطات فى حياته، كما أنه يقوم بتجارب علي الذين يقومون بخطفهم تحت دعوي النداهة من أجل تصنيع الأنسان السوبرمان، ليبدأ عاصم تجاربه علي رفعت، لكن رفعت ينجح فى الوقيعة بين عاصم وزوجته التى تحرر رفعت، فيقوم رفعت بإحضار الشرطة ليجدوا أن عاصم وعواطف قد إنتحرا، لكنهم ينجحون فى تحرير المخطوفين وليقضى ذلک علي أسطورة النداهة للأبد.

نقد رواية أسطورة النداهة من منظور المنهج البنيوى التكوينى

المنهج التكوينى بالأدب بوصفه ظاهرة اجتماعية تاريخية، آخذا بالاعتبار ببنياته الخاصة التى يفسرها فى إطار العلاقات الموجودة بين العناصر المكونة لها و بينها وبين العناصر المتفاعلة معها. البنيوية التكوينية تدرس العلاقة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الفنى والأدبى، وذلک عن طريق تحليل البنى الأدبية والبنى الاجتماعية. الرواية كإبداع فنى على رأى غولدمان فهى تعبير عن رؤية العالم وهى رؤية تتكون داخل جماعة أو طبقة معينة فى احتكاكها بالواقع، وصراعها مع الجماعات الأخرى. «إن الرؤية للعالم هى بالتحديد، هذه المجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التى توحد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفى الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم فى تعارض مع المجموعات الأخري، إنها بلا شک خطاطة تعميمية للمؤرخ، ولكنها تعميمية لتيار حقيقى لدي أعضاء مجموعة يحققون جميعا هذا الوعى بطريقة واعية ومنسجمة إلى حد ما.» (غولدمان،٢٠١٠م: ٢٦) «إن النص الأدبى برأى غولدمان هو

بنيــة متولدة عن بنية أشمل وأعمق هى البنيــة الاجتماعية للجماعة أوالطبقة التى يمثلها المبدع، ولهذا لابدّ من دراســة النص الأدبى للكشــف عن مدى تجسيده للبنية الفكرية للطبقة أو للجماعة الاجتماعية التى يعبّر عنه الكاتب، ونقطه الاتصال بين البنية الدلالية هى العمل الأدبى والوعى الاجتماعى هى أهم الحلقات عند غولدمان والتى يطلق عليه مصطلــح "رؤية للعالم"، فكل عمل أدبى يتضمــن رؤية للعالم، ليس العمل الأدبى المنفرد فحسب لكن الانتاج الكلى للأديب.» (منتظرى،٢٠١٢م: ١٦٨)

إن دور المبــدع فى رأى غولدمان هو إبراز هــذه الرؤية وبلورتها فى أفضل صورة ممكنــة ومتكاملة لهــا، أى أنه يعبر من خلالها عن الطموحــات القصوي للجماعة التى ينتمى إليها أو يعبر عن أفكارها، وهذا يعنى أن المبدع ليس هو صاحب الرؤية الفكرية فــى العمــل الروائى، ولكنه مبرزهــا وموضحها فقط. يعتقد غولدمــان أن «الكاتب لا يعكس الوعى الجمعى... بل علي العكس يقدم بشكل متقن درجة المطابقة البنائية التى أدركها بعمق الوعى الجمعى نفسه فقط. وهكذا فان العمل يلون نشاطا جمعيا عبر الوعى الفــردى لمبدعه... .» (غولدمــان، ١٩٩٣م: ٤١) من ثم أن البناء الجمالى للعمل الروائى يتميز باستقلال نسبى عن بناء العلاقات الاجتماعية وشكلها، لذلک فالنص الروائى لا يطابــق الواقع، ولكنه فقط يمكن أن يماثل بنية أحــد التصورات الموجودة عن العالم فى الواقع الثقافى والفكرى.

يســتمد غولدمان لدراسة العمل الفنّى فى منهجه النقدى من المرحلتين والأولى هى مرحلــة فهم العمل الفنّى والإلمام ببنيته والثانية هى مرحلة التفســير التى يســتخدمها غولدمــان فى توضيح العلاقة بين بنيــة العمل الفنّى و البنيــة الاجتماعية – التاريخية للمجتمع.

موضوع الرواية

اهتــمّ بطل الرواية رفعت إسماعيل وهو يمثل الطبقة الوســطى المتعلمة بنفى التقاليد والعادات الخرافية التى تمت ترســيخها فى نفوس المجتمــع الريفى وعقوله وبمكافحتها بأسلحة العلم والمنطق. موضوع الرواية هو عودة رفعت إلى القرية ومواجهته بالمشكلة

التى تعانى منها قرية كفر بدر بوجه عام وأسرته وأخوه بوجه خاص.

يسعى الكاتب أن ينقل للقارئ مدى ترسيخ وتأصيل الخرافة فى نفوس المجتمع الريفى وعقوله من خلال نوع فنى جديد أى أدب الرعب. يستمد توفيق فى هذه الرواية من أسطورة النداهة وهى من الأساطير الريفية المصرية التى تكون أكثر إنتشارا فى المجتمع الريفى لنيل غرضه. أسطورة النداهة تروى لنا مدى تأثير الخرافات فى عقول الناس وكيفية الإستغلال من هذه الخرافات لمراوغة الناس. إنها تسلط الضوء على جزء من العادات السلبية التى شاعت فى المجتمع المصرى فى أيام تعرّف المصريون على التطورات العلمية العالمية.

شخصيات الرواية

تعتبر الشخصية عاملا حاسما فى تكوين النص الروائى كما تضفيه علي الأحداث من حركية وتشويق فقد يستطيع الروائى أن يتخلص من الحبكة أو من بعض العناصر الأخري لكنه لا يستطيع التخلى عن شخصيات عالمه الروائى، لأنها أساس وجود الرواية ككل، فهى نبض النص والحركة المتحدة التى تسرى فى شراينه، لا يستطيع تجاهلها أو حتى تجاوزها بأى حال من الأحوال. (صحراوى، ١٩٩٩م: ١٥٤) يؤكد جورج لوكاتش ولوسيان غولدمان علي علاقة البطل الروائى بالعالم الذى يعيش فيه، فقد ذهب جورج لوكاتش بتنظيراته التى حاول تطبيقها علي بعض الأعمال الروائية ذات الطابع العالمى كرواية" مدام بوناری" والتربية العاطفية لفلوبير، ورواية "دون كيشوط" لسوفانتوس وغيرها من الروايات إلى الربط بين تلك الأشكال الروائية ووجود بطل روائى أطلق عليه اسم البطل الإشكالى الذى يقوم بالبحث عن قيم أصلية فى إطار مجتمع يخلو من تلك القيم مؤكدا بان عالم الرواية يقوم أساسا علي التناقض بين عالم القيم الإنسانية المثالية الثابتة وعالم الوقع التاريخى المتغير، وهو ما جسدته حقيقة شخصيات الروايات العالمية الشهيرة التى عرفها بقوله:« إنهم أناس جاؤوا ليتعلموا الفارقة بين عالم المثل وعالم الوقائع التاريخية.» (بوعلى، ٢٠٠١م: ٢٢٦)

تزخر رواية أسطورة النداهة بالشخصيات المتحركة والمساهمة فى تفعيل حركة

العمل الروائى بكل مستوياته الفكرية والفنية، حيث نصادف أسماء علي قدر واضح من التميـز والاختلاف، مثل: الدكتور رفعت إسماعيل، أم رفعت، رئيفة، رضا، نجاة، الدكتور عاصم فتحى وعواطف.

نجد فى رواية أسـطورة النداهة نموذجين متناقضين أحدهما يمثله رفعت والذى يقدم لنـا صورة لواقع الرجل النموذجى داخل المجتمع المصرى، وهو يمثل لنا نموذجا لطبيب مثقف وواعى يسـعي لإثبات الحقائق ولمسـاعدة مجتمعه الريفى، بينما يعكس النموذج الثانى العالم الشرير الذى يمثله عاصم، هذا الطبيب العالم والذى يحاول الانتقام لنفسه من عقده النفسية مع النساء، وأيضا الانتقام من ذلک الفارغ المكانى الخانق الذى أملته عليه مقتضيات الحياة والمتمثل فى حاجته إلى الانتقام من فشله العاطفى والمهنى عن الريفيين.

رفعت إسماعيل: طبيب أعزب فى السـبعينات من عمره يروى ذكرياته عن سلسـلة مـن الأحداث الخارقة للطبيعة التى تعرض لها فى حياته. يصف رفعت إسماعيل نفسـه بأنه حالة فريدة من النحول واعتلال الصحة. يدخن بشـراهة، ويسـتخدم دائمًا حبوب النيتروجلسـرين بسـبب حالة قلبه الواهنة. ويعانى من الربو وضيق الشرايين التاجية والقرحة. يمتاز بأنه ملول وعصبى، وميال إلى انتقاد الآخرين وتصنيفهم. يبدو من خلال مواقفـه العديدة أنه رجل قوى ومتحرر وذات شـخصية رجولية، تعكس مواقفه رفضه الشـديد لأعمال الأصوليين اللاإنسـانية وتقاليد المجتمع الجائرة فى كثير من الأحيان. يسـعى أن يرى الأحداث من منظور العقلية إسـتنادًا إلى الواقع وحل المشـاكل التى واجهتها أقرباءه.

عاصم فتحـى: الطبيب المقيم فى كفر البدر وفى الخمسـينيات من العمر، يعمل فى الوحـدة الصحية فى القرية وله أيضا مختبر سـرى يختبر فيه ضحاياه الريفيين. عاشـق مجنون للحياة، متزوج، غير واثق من نفسـه، متذبذب ويلفه الغموض، لايحصل علي كل ما يتمناه ويسـعي لذلک، لا يتقبل الخسـارة، لا يثق فى أحد وبالأخص النساء. تزوّج بعواطف ولكن حبه لها غير صادق، اسـتحوذت عواطف علي سره الذى صانه منذ أمد بعيد ولم يبح به لأحد.

عواطف: زوجة عاصم وصديقة وفيّة لزوجه وتعمل معه لخداعة الناس والإستغلال

من معتقدات الريفيين عبر أسطورة النداهة ولكن فى نهاية المطاف تدرك أنها أيضا ضحية زوجها وتطلق سراح رفعت من مختبر عاصم.

رضا: هو أخ رفعت وأصيب بمرض مجهول ولكن ترى أمه وزوجته نجاة أنه لبى نداء النداهة وصار مجنونا. يسعى رفعت أن يزيل الغموض من مشكلة أخيه ويدخل فى لعب خطير وفى الأخير يفهم المشكلة.

أم رفعت: إمرأة ريفيّة بكل أوصافها. ظهرت فى أسطورة النداهة كأم مكلومة بعد أن ندهت النداهة ولديها رضا ورفعت، كما أنها تخشي أن يكون رفعت قد تغير أو تكبر، وتحاول تزويجه لتطمئن عليه دون فائدة.

رئيفة: أخة رفعت وهى إمرأة ريفية وتلتزم بعادات وتقاليد الريفيين وتسعى ألا يدخل رفعت فى فخ النداهة لأنها تؤمن بوجودها.

نجاة: زوجة رضا وهى لاتوثق برفعت ورفعت فى نظرها رجل غبى عاد من المدينة ولايفهم الريف والريفيين ولذلک تكرهه كثيرا.

البنية الدلالية للفكرة فى النص الروائى:

إن هذا العنصر فى الدراسة يتناول دراسة للبنيات الدلالية للفكرة (الوعى) فى الرواية باعتبارها مكونا دلاليا إديولوجيا يتمفصل فى ثنايا النص الروائى، كما يعد مكونا جماليا يساهم فى بناء شعرية النص الروائى، تخترقه كعنصر فنى يفرز أفكارا ورؤي متعددة ومتصارعة وهذا التصادم يعد قضية جوهرية تساهم فى بناء عالم النص الفنى بموازاة العالم الواقعى. إن فنية النص الروائى تلعب دورا هاما فى تشكيل يساهم فى دفع حركة الأحداث فى النص يلجأ إليه الكاتب باعتماده علي عناصر: «الحجاج والاقناع التى تحاول التأثير علي المتلقى» (مسعودى، ١٩٩٩م: ٢٧٣) وتدفع كذلک القارئ لخلق أفق انتظار لفكرة ما أو رؤية معينة. كما قد يترک الكاتب كل هذه الأفكار تتمتع بنفس الحضور وبالقدرة الاقناعية التى تحملها فى النص.

بنية الفكرة بين الوعى الكائن والممكن:

إن تحديد الكيفية والطريقة التى من خلالها عرضت الفكرة فى النص يعتمد أساسا

علـي التركيز علي عناصرهـا اللغوية الدلالية لأن القيام بعمليـة تصنيف الفكرة ضمن العمـل الروائى، قد لا يعنى أن النـص الروائى متبن لفكرة واحدة بل علي العكس من ذلـک فقـد نعثر فى ثنايا النص الروائى علي زخم معتبر مـن الأفكار المتصارعة التى يقتضيها التشـكيل الأسـلوبى من أجل بناء جماليته. لقد طـرح (غولدمان) فى كتاباته النقدية، جملة من المفاهيم السوسـيولوجية، والتى تنبنى عليها المقولات الأساسـية فى منهجه البنيوى التكوينى، والتى تتمثل فى: البنية الدلالية، الرؤية الكونية، الوعى الكائن والممكن. فهذا الأخير وثيق الصلة بالبنية الفكرية فى المجتمع، كما يمثل التصور الحقيقى للعلاقات الانسـانية، وقد يرقي أحيانا إلى تجاوز الواقع والسـمو به إلى آفاق فلسـفية تؤسس للوعى الجمالى مشروعيته فى صورته الفعلية فى المجتمع. إن الوعى على رأى غولدمان هو «مظهر معين لكل سـلوک بشرى يستتبع العمل.» (غولدمان، ١٩٨٢م: ٢٥) فالوعـى الممكن علي حد قول (غولدمان): «ما يمكـن أن تفعله طبقة اجتماعية ما بعد أن تتعـرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقى» (شـحيد، ١٩٨٢م: ٤٠)، أى أنـه ذلک الوعى الذى من خلاله تتغير حركية الطبقة الاجتماعية بعد تعرضها لمتغيرات مختلفة دون أن تتخلي عن انتمائها الطبقى، إنه ذلک «الوعى الشمولى القادر علي تغير التاريخ، ولن يتحقق هذا إلا بفعل عبقرية الأديب الذى يستطيع أن يعبر عن رؤية العالم لطبقـة معينة... وهذا الممكن هـو رؤية العالم.» (صـالح، ٢٠٠١م: ٢٥٥) بمعنى أنه ذلک المستوي من الوعى الجماعى الضرورى الذى تتبناه طبقة واعية وفاعلة وطامحة للتغيير. لكن تبقي هذه الطبقة أحيانا بعيدة عن تجسـيده وتحقيقه، لأنها تعيش تحت سـيطرة فكر آخر، هو فكر الايديولوجية المهيمنة التى تخفى حقيقة الواقع بالنسبة للطبقات المستغلة، والتـى تعيش علي الوهم الفكرى للطبقة المسـيطرة ومن هنا تلجأ هذه الطبقة للرضوخ تحت تأثير الواقع فيصبح تفكيرها «ناجم عن الماضى بمختلف أبعاده وظروفه وأحداثه، بما تسـعي كل مجموعة اجتماعية لفهم واقعها انطلاقا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية» (المصدر نفسـه) من هذا أو ذاک، تتجلي العلاقة التى تربط بينهما، باعتبار أن الوعى الممكن ينطلق من تجاوز الواقع اليومى بالاتجاه إلى التطابق الجوهرى بين المسـتوي الطبقى والتطلعات المستقبلية، أما الوعى الكائن، فهو منحبس فى الواقع

ولايتعداه بل ويستنجد بالماضى كما أنه متقوقع علي نفسه، إنه ذلک الوعى الجمعى الذى يمتلكه كل الأفراد سواء كان فكرهم سائدا أم مسودا بحيث لا يمتلک الأفراد القدرة الكافية فى تكوين رؤية مستقبلية، تجعل الأفراد يخلقون منظورا وهميا بسيطا، بالاعتماد علي الماضى وسياق العلاقات الاجتماعية المتحكمة فى دواليب الحياة اليومية.

يتأسس خطاب رواية "أسطورة النداهة" علي نمطين متقابلين من أنماط الوعى الممكن بحيث كل منهما ينبنى علي خلفية خاصة، وعلي انتماء فئوى خاص داخل الطبقة بحيث تنقسم هذه الفئوية إلى شكلين، ففى الشكل الأول نسجل اديولوجية التغير والاصلاح فى المجتمع الريفى وأيضا مواكبة التطورات التى حدثت فى العالم العربى بفضل التطورات المتسارعة العالمية التى تتبنى أفكار البطل (بطل الرواية) وهو الذى يمتلک فكرا إصلاحى للمجتمع الريفى و الطامح إلى تجسيد رؤاه فى الواقع انطلاقا من إشارته لمنطلق تغير العلاقات الاجتماعية فى المجتمع الريفى المصرى. أما النمط الثانى من الوعى الممكن فنسجله فى الحضور الفكرى الذى تبنته الشخصية الفاعلة الأخرى أى عاصم، وذلک بوقوعه فى وجه المجتمع المدنى وذلک بالمحافظة قدر المستطاع علي هذا الوضع الاجتماعى المتدنى، والغارق فى سراديب الرداءة وهذه النظرة لها بعد يتمثل فى ضمان استمرارية قضاء المصالح الشخصية، وبسط أشكال الهيمنة من خلال استغلال العادات وتقاليد المجتمع البدوى وتوسيع دائرة المصالح ومن ثم المحافظة علي الملكية المادية للأفراد الحاملين لهذا الوعى.

إن تجليات الوعى الممكن فى سياق فكرة التغيير والاصلاح تتمظهر عبر قصة البطل "رفعت إسماعيل" الحامل لرؤية شمولية للواقع ومن خلال تتبع هذه الشخصية المحورية فى الرواية التى عند التعمق فيها نجد أنفسنا وصلنا من خلالها إلى واقع عام قصده الروائى بنصه وادراک العلل والخلفيات المستترة، فشخصية البطل "رفعت" باعتباره طبيب مثقف ومناضل واجه فى وجه تخلفات المجتمع الريفى واستعان بمنطق علمى لتفسير الأحداث الغريبة. وهذا ما يدل علي ايجابية الوعى الذى يحمله البطل. وهو علي ظهر الجمل: «هناک شىء واحد أعرفه .. أن واجبى هو أن أجلب بعض زملائى من أساتذة الجامعة ليروه.. وأنا واثق أنهم سيجدون مصطلحًا لاتينيا من عشرة أحرف على

الأقل يسمون به هذا المرض.. وسيصفون بعض الأقراص والحقن تعيد أخى إلى حالته الأولى.» (توفيق، لاتا: ٢٣) توفيق يسعى أن يرى الأحداث من منظور العقلية إستنادًا إلى الواقع وعلى هذا، رفعت قام بمواجهة خرافة النداهة على المنطق والسعى إلى كشف التفسير العلمى لهذه الظاهرة؛ لأنّه لم يصدق أى شيء إلا بوجود المنطق العلمى؛ من ثمّ عندما واجه رفعت بمشكلة أخيه رضا، طلب من زملائه أن يفحصوه. هذه من مظاهر الوعى لدي البطل أو الشخصية المحورية عند تذكر لمشكلة أخيه وتساؤله عن أسباب هذه المشكلة، فتدافعت لذاكرته الصور المزدحمة قريبة ومشرقة وتضربه فكرة استعانة المنطق العلمى، فتلتبس عليه بما يراه ويسمعه وما يحسه. إن إطار الوعى الممكن المبنى علي فكرة التغير وذلک عن ريق استعانة المنطق العلمى الذى تبناه الكاتب "أحمد خالد توفيق" علي لسان الشخصية المحورية "رفعت"، تفرز قراءات نقدية تصحيحية لأخطاء قد ارتكبت فى فترة زمنية ما، مردها رداءة وقذارة الواقع وكذا الوعى التلقائى الذى تميزت به بعض الفئات الاجتماعية الأخري، فالوعى الذى يتمتع به البطل جعله يرجع أسباب المعاناة الاجتماعية والتخلف الاقتصادى والثقافى إلى هشاشة وسلبية وعى الفئة السائدة فى المجتمع. ونتيجة لهذا الاستقراء الاجتماعى فى الرواية، فإن جوهرية الفكرة تتمثل فى العمل وفق منظور ايديولوجى يؤمن بالتطور والسيرورة التاريخية للمجمعات كقيمة مركزية ترتسم ملامحها فى الحياة اليومية للمجتمع المصرى. إن تجليات الوعى الكائن والممكن، تظهر من خلال منهجية التفكير وكذا ردود الفعل المختلفة للفئات المجتمعية فى مواجهة الطارئ والجديد، إضافة إلى عدم تحديد الرؤية لقضايا متعددة ومختلفة المشارب، فعن هذا ينتج تصادم واضطراب للبنية الفكرية الناتج عن تضارب الأفكار فى الفئات المجتمعية و عدم قدرتها علي تحديد رؤية شاملة ضمن حركية الفعل الاجتماعى فى المجتمع المصرى.

رؤية العالم فى الرواية:

الكتابة تعيين و تحديد و مداخلة فنية فاعلة، إذ أنها تقوم بحجب الأيديولوجية التى هى «إحدي العناصر المكونة للنص الإبداعى موازيا للنص ذاته ببناه الخارجية و

الداخلية، ومن ثم فالتركيز الوظيفى علي الأيديولوجية التى تحدد اتجاها إنسانيا معين، يصبح غير مجد ما لم تكن الوظيفة الجمالية سابقة الوجود، و بذلک يستطيع العمل الفنى أن ينقل القارئ من موقع جمالى ثابت إلى موقع متغير ذى قيم فنية جديدة، وبذلک تحدث الوحدة العضوية بين الشكل و المضمون فى مستوياتها المتداخلة لأن كل نص هو ثمرة المخيلة، و هو يولد بحالة تنازع مع الواقع فى سعيه لتعريته و قبض جوهره و الإبانة عن أيديولوجيته فى حالة الرفض أو القبول و ندرک مدي فعالية أداته فى فهم و تحليل الواقع و البحث عن سببية العلاقات الاجتماعية، أى أنها تنفذ إلى باطن هذه العلاقات حتى تتعرف علي الآلية التى تسيرها أى أنها ترصد شكل المستويات الاجتماعية، المحكوم ببنية اجتماعية محددة، و المحكوم بممارسات اقتصادية و سياسية و إيديولوجية صادرة عن تحالف طبقى معين.» (مشرى، ٢٠٠٠م: ١١١-١١٢)

يقدم غولدمان تعريفا لمفهوم رؤية العالم قائلا: «إنه التقدير الاستقرائى التصويرى إلى أعمق مدي التحام الأحاسيس المتحركة لأفراد فئة اجتماعية ما، ومجموعة مترابطة من القضايا والحلول التى يتم التعبير عنها علي المستوي الأدبى عن طريق الإبداع، بواسطة الألفاظ وبواسطة كون محسوس من المخلوقات والأشياء.» (غولدمان:٢٠١٠م: ٣٤٩)

و الروائى أحمد خالد توفيق فى روايته "أسطورة النداهة" يحاول أن يجسد مرحلة من تاريخ المجتمع المصرى، لأنه شاهد علي تحول اجتماعى فى فترة السبعينات وثمانينات من القرن الماضى التى عرفت بسياسة انفتاح الدولة المصرية أمام العالم والتى امتازت بوجود الأنظمة السياسية المستبدة ومن ثم شيوع ظاهرة ميديا والزحف إلى العولمة والكثير من الأحداث التى عرفتها هذه الفترة، فالرواية مؤشر لمرحلة جديدة، إذن فهى تقدم رؤية للعالم –فى تلک الفترة– التى هى تعبير عن إشكالية ملموسة علي مستوي المتخيل و الواقع تحدها بنية متوفرة علي شخصيات وأفعال و علائق و لغات، إلا أننا حينما نقرأ "أسطورة النداهة" نشعر أحيانا بحضور الرعب، لكن فى أحيان كثيرة نلاحظ غياب كلى له، فنشعر بوجود أحداث روائية تبحث عن مبررات واقعية تبرر كل الأحداث. على سبيل المثال: «إنّهما هنا.. وعلى الفراش كانا.. هى ساقطة على ركبتيها

ووجههـا مدفون فى الملاءة كأنّها تبكـى بينما هو راقد على ظهره مفتوح العينين ونظرة ذاهلة ترمق السـقف.، وعلى الأرض انتشـرت أقراص (الدونوليز).. لقد تناولا جرعة قاتلة من دواء السكر أدّت لقتلهما على الفور.. .» (توفيق، لاتا: ١٢٣) فى نهاية الرواية كان عاصم و عواطف قد انتحرا بسبب الخوف والهروب من العقاب واليأس والإحباط النفسـى الذى كان قد سيطر عليهما فى الأخير. الانتحار رد فعل تراجيدى ومأساوى لمواقف الحياة المجهدة وهو أمر شـائع فى المجتمعات المدنية. وبما أن الرؤية الواضحة، تمكن الكاتب من إدراك وفهم الواقع الاجتماعى، والقبض علي حركته، للكشـف عن المتناقضات وتعريفها فإن الوعى –دون شـك– أداة فاعلة يكتسـبها الإنسان من ذاته وواقعـه الطبقى، لأن «كل حدث اجتماعى يسـتدعى فى بعـض جوانبه عملية وعى، وإن كل وعـى هو أولا تصـور يتطابق نوعا ما، مع هذا الجانب مـن الواقع أو ذاك... وأن البحث فى تطابق هذا التصور مع الواقع يقتضى نظرة اجتماعية شمولية.» (مشرى، ٢٠٠٠م: ١١٢) ورفعـت فى الرواية يمتلك تصورا فعليا للواقع، فهو ليس مجرد أداة فى يد الكاتب، إذ نجد أن كل الأحداث التى يقوم بها "رفعت" مبرر فنى، لأنه قد لعب دورا بارزا فى بداية الرواية وفى نهايتها أيضا وذلك مع مقدمات منطقية.

يبدو من الرواية أن رفعت فقد بقى متمسـكا بالحق والحقيقة بالرغم من وجود كل تلـك المشـاهد التى كانت تحيط به محاولة إغناءه بوجـود النداهة، إلى جانب كل هذا فقد تمكن أيضا من التخلص من سـيطرة عاصم وعواطف، وفك اللغز الذى ألقاه عليه، واستعادة نفسه بعدما فقدته وهى تهيم فى العالم السحرى الذى وضعه فيه عاصم، والذى أبهره بسـحره، وقد تمكن فى النهاية من التخلص من الأغلال التى كان يقيدها بها هذا الرجـل، بالرغم من أن ذكاء رفعت لعب دورا كبيرا فى هذا بداية باسـتغلال مشـاعر عواطـف والتحدث معها ثم إغناءهـا بأكاذيب قالها عاصم لها. «وهنا خطرت لى فكرة .. الوتر الوحيد الذى يمكن أن ألعب عليه هو مشـاعر الأنثى.. لهذا قررت أن أستغل ما أعرف: – (عواطف)!.. هل أنت واثقة أن (عاصم) يحبك..؟ أن الدكتور عاصم لايحبك .. بل هوى يرى أن زواجه منك أحد أسباب كراهيته لهذا المجتمع .. أنت إحدى علامات هزيمته وهو لن يغفر لك هذا.. ألم تتصفحى أبدا كراسـة مذكراته؟! أنا رأيتها .. ووجدت

بها قصائد شعر ورسوما وحديثا عن فتيات كثيرات أحبهنّ قبلك.. وبعد ربع ساعة عادت عواطف لى والدموع فى عينيها وثمة شيء ما فى قبضتها.. وصاحت وهى تتهاتف وأنفها يسيل: - ذلك السافل..! الملعون! أنه لم يتزوجنى إلا لأنى أشبه حبيبته الأولى.. وهنا مدت يدها فى عصبية بالشيء الذى كانت تخفيه .. فتاح صغير صدئ أولجته فى قفل القيود وشرعت تفكها فى جنون.» (توفيق، لاتا: ١٢١-١٢٢) ففى الرواية نلاحظ وجود ذلك التفاوت الاجتماعى بين شخصين من طبقة واحدة وهما رفعت وعاصم ورفعت كان مدرك تماما لذلك التناقض الموجود بينه وبين عاصم. فنجده أحيانا فى حالة تأقلم وتكيف مع عالمه، والقيم وعلاقاته تختلف جذريا عن القيم وعلاقات عاصم والأخير يسعى مواجهة مجتمعه وطبقته الاجتماعية. ويبقي عاصم مرتبطة بحلمه لصنع أنسان السوبرمان، وهو مرتمى فى أحضان جريمة، ورغم كل هذا، فإنها استيقظ فى النهاية من حلمه هذا وغادر سحابة الأحلام وقام بالانتحار للتخلص من إحباطه النفسى. فالوعى قد برز فى ظل هذه الظروف، فقد كان حاضرا وفاعلا فى الواقع، ونجد رفعت فى مواقع أخري تكشف عن تذبذب فى الموقف والرؤية. لكن فى النهاية أدرك واقعه بعمق وبنظرة ثاقبة.

تأثير البنية التحتية الاجتماعية والسياسية علي الوعى الجماعى

يؤكد لوسيان غولدمان علي دور البنية التحتية السياسية والاجتماعية فى تشكيل عمل فنى. وهو يقول: « تطور وعى كل مجموعة اجتماعية وهيكلها العقلى فى ارتباط وثيق مع عملها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى داخل المجتمع، ولكن ليس هناك شك فى أن الوعى الجماعى هو خارج الوعى الفردى.» (غولدمان،٢٠١٠م: ٧٠) وهو يعتقد أن الوعى الجماعى موجود كنوع من الواقع الممكن فى أفراد المجتمع. تعتبر العملية الاجتماعية، باعتبارها المحور الرئيسى لتشكيل رؤية العالم للكتاب، بمثابة حجر الزاوية لوعيهم الفردى.

ما يصور التاريخ المعاصر من البنية التحتية السياسية والاجتماعية لمصر فهو الحكومات الاستبدادية التى تستغل من الطاقات البشرية والتى تكافح من أجل البقاء

وتجاهـل العديـد من القدرات المحليـة. و من هذا المنطلق بدأ أحمـد خالد توفيق كتابة سلسـلة "ما وراء الطبيعة" عام ١٩٩٣م أى أوائل تسـعينات من القرن الماضى فى عهد الرئيس المصرى السابق حسنى مبارك. وجد الروائى المصرى فى عهد مبارك نفسه فى مواجهة مباشرة مع أنظمة مستبدة لم يكن بإمكانه الكتابة عنها بالنقد الواضح والمباشر، لذا «لا نجد فى روايات الثمانينات والتسـعينات حوارات سياسية طويلة ومباشرة بين الأبطال، فى حين نجد مجموعة من الأسـاليب السردية التى وسمت انتاج تلك المرحلة أبرزها اللجوء إلى الفانتازيا، والتجريب فى السـرد، للحديث عن السجون والمعتقلات واستبداد السـلطة وانعدام الديمقراطية.» (www.arab48.com) من جانب آخر شهد المجتمع المصرى بفضل سياسة الانفتاح التى تقرر فى عهد مبارك التطورات الكثيرة فى المجالات المختلفة. تزداد نسـبة السكان فى المدن يوما بعد يوم وتتصاعد وتيرة الطبقة الوسـطى من الناحية الكثافة السكانية وبالتالى زادت المطالبات وحاجات هذه الطبقة من الرفاهية والمعيشـية ووسـائل الترف. «إن أزمة المجتمع المصرى فى ظل سياسات الانفتـاح الاقتصادى و الخصصة إنعكسـت على الشـخصية المصرية و هناك حالات من الفسـاد بأشكاله المختلفة، وشـيوع حالة من عدم الانضباط على كافة المستويات والتسـيب واللامبالاة وإزديـاد أنماط من الجرائم لم يكن المجتمـع المصرى يعرفها من قبل مثـل جرائم المحرمات وجرائم المال، والنصب وغيرهـا. ويرصد علماء الاجتماع انعكاس ذلک على الشـخصية المصرية فـى ظواهر مثل العنف وثقافة الزحام وتفكک الأسـرة وإعلاء القيـم المادية واختفاء قيم التعاون والتسـامح والتسـاند الاجتماعى وانتشـار سلوكيات سلبية وانهيار الخدمات الصحية والعلاجية للفقراء وتدهور أحوال التعليم وزيادة معدلات البطالة بين الشباب.» (عبدالمجيد،٢٠١٥م: ٣٧٦)

بعد الخمسـينات من القرن العشـيرن تغيرت مظاهـر المدينة فـى المجتمع العربى وذلک بسبب هجرات هائلة من الأرياف إلى المدن، وقد نتجت عن ذلک مظاهر كثيرة ومشـكلات نفسية واجتماعية. كان قد تفشى فى المدينة الأعمال الطفيلية التى لاتقبلها بنية المجتمع العربى كالتجارة بالأعراض، السرقة والاختلاس. (أبوعياش، لاتا: ١٢) «لم ينج المجتمع المصرى من رياح التغيير وما يلاحقه من موجات التطوير وكما هو الحال

فى مراحل التحول الاقتصادى يشـهد المجتمـع أنواعا من الحراك يتولد عنها مجموعة من الجرائم المستحدثة التى تعكس نوعية التغيير وطبيعته.» (محمود، ٢٠١٤م: ٥٥) يبدو أن تنعكـس بعض القضايا التى تواجه بها المجتمـع، وخاصة المجتمع الريفى المصرى، الأكثر فى الأنظمة الاسـتبدادية والجائرة التى تعيش فيها الكاتب؛ لأن الإنسان، إن لم يكن قادرًا علي التعامل مع الحتمية والأقدار، يرسـم هذه المخاوف فى ذهنه ويعرضها كعمل أدبى.

بالنسـبة للريف المصرى، فيجب القول إن نظام مبارك عمّق من الآثار السلبية التى انتابت الريف، فلم يتحرك لتخفيف حدة الفقر، وشكّل سوء توزيع فى الأوساط الريفية عنصراً مهماً فى تسـخين الاحتقانات الاجتماعيـة التى تصاعدت لدرجة لم تفلح معها مسكنات حكومات مبارك المتعاقبة فى إخمادها أو حتى تهدئتها. «كان الفقر فى مصر فى الأسـاس ظاهرة ريفية ومن ثم كان أول من يتبادر إلى الذهن عندما تثار مشـكلة الفقر فى مصر هم «فقراء الريف». كان ٨٠٪ من سـكان مصر يعيشـون على الزراعة، غالبيتهـم العظمى فى فقر مدقع، ويتكونون من صغار مسـتأجرى الأرض والعالمين فى الزراعة بأجر يومى.» (أمين،٢٠١١م: ١١٤)

على الرغم من سياسة الدولة المصرية منذ عهد الرئيس المصرى المنتهجة الرامية إلى إقرار سياسة الانفتاح والبرنامج الخاصة، إلا أنه كان الوضع عكسيًا «وانخفض الدخل بالنسبة للفلاح نتيجة لعدم قدرة الزراع على توفير التسميد بأنواعه المختلفة والمبيدات الحشرية والتقاوى المحسنة وفتح باب الاستيراد للسلع والمنتجات الزراعية المدعمة فى مصر من ناحية وصعوبة المنافسـة فى الأسواق الخارجية للسلع المصرية بسبب ارتفاع تكلفتهـا و تدهور مواصفاتهـا من ناحية أخرى مما أدى إلى زيـادة العجز فى الميزان التجارى.» (أبومندور، ١٩٩٥م: ٦٨)

تحليل المجتمع على ضوء الرواية

رواية أسطورة النداهة هى قصة حياة البطل (رفعت إسماعيل) عندما عاد إلى قريته كفـر بدر وعاش مع أهله والريفيين لمدة لم تتجاوز شـهرين. خلال هذه الفترة، شـاهد

رفعت سوء المعيشة والحرمان الذى ظل على قريته من جهة ومن جهة أخرى مظاهر التخلف الفكرى والحضارى فى مجتمعه الريفى وبالطبع ذلک مرتبط جزئيا بوجهة النظر السردية لرفعت. تبدأ الرواية فى ستينيات من القرن الماضى، حيث وصل رفعت إلى قريته بسيارة أجرة و يروى مشاهداته عند الوصول إليها. «قريتى العجوز الطيبة حيث كانت طفولتى ومراهقتى قبل أن أنتقل إلى القاهرة كى أدرس الطب وأقيم هناک.. لم يتبدل شيء.. البيوت الطينية .. الساقية.. المسجد الذى تآكلت جدرانه.. الترعة الراكدة.. النخلة المائلة فوق حائط الكُتاب.. الأطفال الحفاة يلعبون ألعابهم البدائية وقد تدلى المخاط من أنوفهم... .» (توفيق، لاتا: ۷) هذه القرية توسم بكل أوسام الأرياف المصرية فى القرن الماضى. كل شيء فى هذه القرية يشير إلى حالة البؤس والشقاء والحرمان.لم يعد بمقدور المصرى الذى يعيش فى الأرياف، العيش كغيره مرتاح البال، فقد سلبوا منه الحياة الكريمة ولقمة عيشه. فمظاهر الحقرة هذه جعلت الكثيرين يفقدون صوابهم، لعلهم بذلک ينسون واقعهم فلا يرون ما حولهم، هذه هى طبيعة الريفى الذى لا يتحمل أن تهان كرامته و يداس عليها. تبدو الرواية لوحات لحياة هذا الفضاء الريفى ويوميات أهله ومعتقداتهم وقيمهم وكتابة لصراع الفلاحين والريفيين مع الحياة وآفاتها. فى المجتمع الذى يصفه توفيق، ليس كل من يراه بطله على مايرام حتى الأبنية والسيارة التى وصل رفعت بها إلى القرية. «كنتُ أنا فى سيارة أجرة .. واحدة من تلک السيارات العتيقة التى لا تصلح إلا للسقوط براكبيها من الفلاحين التعساء فى الترعة.. وعلى جانبى الطريق يتوقف الفلاحون عن العمل فى حقولهم ليروا ما هنالک وقد ضيّقوا عيونهم من أثر الغبار والعرق... .» (توفيق، لاتا: ۷) يترصد الكاتب العائلات التى تقطن هذه القرية وتعمل فى حقولهم ليجدوا لقمة عيشهم و بهذه الطريقة تبدأ القصة. تهدف بنية الرواية وأفكار رفعت دوما إلى توضيح حقيقة حياة الريفيين و كيفية معيشتهم.

على جانب موضوع الحرمان والفقر، يسعى توفيق فى روايته على تصوير مدى حضور الخرافة فى المجتمع الريفى عن طريق تمثيل مشكلة واجهها بطل الرواية. يسعى الكاتب فى ثنايا الرواية تصوير مدى تاثير الجهل فى أذهان الناس ومن هذه النقطة يروى رفعت مما يشاهده بعد أن يلتقى إلى الشخص الذى أصيب بمرض الكلب ولكن

يعتقد أهله أنّه لبى نداء النداهة. يكون التصوير الذى يرسم رفعت بهذا المشهد المأساوى صادمة. «مددتُ يدى لمعصمه لأقيس نبضه فوجدت شيئاً مروّعاً. حبلٌ من الليف حول معصمه يثبته إلى وتد خشبى مدقوق فى الأرض، لقد قيّدوا هذا الفتى كحيوان مفترس كى لايفرّ ويا لها من فكرة... .» (المصدر نفسه: ٣٨) رفعت يقوم بفحص المريض ويشاهد آثـار الأنياب فى بطنه وهكذا يفهم أنّه أصيب بمرض الكلب: «واصلتُ فحص الفتى..، وعريـتُ عن بطنه فوجدتُ شـيئاً مـا.. آثار أنياب موجودة على جلـده.. هكذا بدأتُ أفهـم ما هنالك..» (المصدر نفسـه: ٣٩) الموت أمام المريـض وتحذير رفعت أنّه يحتاج إلى الدواء لم يقنع الناس لكى ينتقلونه إلى المستشـفى وعلى هذا يواجه المريض شـيئاً فشـيئاً بالنهاية المؤلمة. «– ليس هذا نداء النداهة يا حاج.. –إذن ما هو؟ –إنّه مصاب بالكلـب.. –الكلب؟ – نعم.. حيوان مسـعور عضه فى بطنه منـذ بضعة أيام!... – يجب نقله فوراً إلى إحدى مستشـفيات الحميات بالزقازيـق .. –ولكن.. –فوراً .. إنّ حياة هـذا الفتى بين أيديكم الآن . قال أحدهم فى فظاظة وتحد: لكن أمه سمعت النداهة يا دكتور.. التفتُ إليه فى غيظ وصحتُ: إذا اعتقدتم فى وجود النداهة فهذا شأنكم، لكن هـذا الفتى مسـعور.. هل تفهمون هذا؟ .. ولن يعيش ليرى صـلاة الجمعة القادمة! .. – والعمل؟ – سبحان الله!.. قلتُ لكم مستشفى الحميات! .. الواضح أنهم لن يأخذوه لأى مكان.» (المصدر نفسه: ٤٠-٤٢)

يحاول الكاتب من خلال هذه الصورة التى يعرضها على القارئ أن يشير مدى تغلغل الاعتقادات القديمة فى المجتمع القروى وتأثيرها على حياة الناس. من ثمّ؛ حينما يصيب رفعت بالمرض، لم تلجأ رئيفة أخته، إلى الطبيب لتحسين حالة أخيها النفسية بل تتوسل إلى شعوذة. «أمّا رئيفة فقد أحضرت مشعوذاً –نصاباً كالعادة –كى يحاول فكّ اللعنة التى تكبلنى وبالطبع أحرق مزيداً من البخور وردد عشرات الرقى وطلب مئات الطلبات ثمّ انصرف زاعماً أن هناك جنيّاً حانقاً على لأنّى لم أجلب له ما أراد من هدايا.» (المصدر نفسه:٨٩) يوجد أيضا الفقر الثقافى ونقص التعليم الاجتماعى السليم فى معظم الناس فى المجتمع الريفى وهؤلاء هم الذين يقعون ضحية لرغبات الآخرين. لذلك، من خلال خرافة النداهة نرى أن قوى الشـعور والغريـزة تتغلب علي العقل والفكر. يعالج توفيق

التبعات السلبية للخرافة فى المجتمع الريفى والمشاكل الناجمة عنها معبّراً عن التضاد ما بين العادات التقليدية والعلوم الجديدة والعواقب التى تحدث نتيجة لذلک بين القرويين.

إن واحـدة من أهم القضايا فـى النقد الاجتماعى للرواية هـى العلاقة بين العمل والطبقـة الاجتماعيـة للمؤلف والتـى تتأثر من وجهـات النظر الطبقيـة. يتم تعريف الطبقة الاجتماعية علي أنها مجموعة كبيرة من الأفراد الذين يشـتركون فى الأسـاس الاجتماعـى مماثل ولديهم وعى جماعى ولديهـم أيضا ثقافة فرعية معينة. تتميز كل فئة بمستوي معين من القوة والثروة والعظمة. فى الأمثلة العملية للنقد الاجتماعى من جانب لوكاتـش وغولدمان وأتباعهم، يعتبر الاهتمام بالأسـاس الطبقى للمؤلف وعلاقته ببنية العمل الأدبى وتشـخيصه جزءًا أساسـيا مـن التحليل الاجتماعى للنص. إن دراسـة نهـج العمل الفنى الذى يرتبط بالأسـاس الطبقى للمؤلف لها أهميةجلية؛ بمعنى أنه يمكن للمؤلف أن يرسم صورة واقعية لهذه الفئة ويعكس آلامها واحتياجاتها بسبب المشكلات الأرسـتقراطية للمؤلف. ومن هذا المنطلق يسعى توفيق عبر خلق الشخصيات المحورية الأخرى مثل الدكتور عاصم الذى يكـون رمزًا لعصيان التكنولوجيا أن ينعكس القلق السائد فى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى منها وهى الطبقة الوسطى. يعرض توفيق فى أسـطورة النداهة العلاقات الفردية قائمة على المنفعة الخاصة لدى الدكتور عاصم ومن ثمّ اسـتغلّ الدكتور عاصم وزوجته من الخرافات والعادات السائدة فى المجتمع الريفى لنيـل أهدافهما باللجوء إلى النداهة، الأسـطورة المتداولة فـى الأرياف المصرية. «فى الليل تردتدى عواطف ثياب النداهة الفسـفورية وتقف عند بيت الضحية وتبدأ باسمه.. أن أحـداً لن يجـرؤ أبداً على الخروج لمضايقتها.. وكنـتُ أزور الضحية صباحا فأعطيه جرعة صغيرة من الباربيتيورات ليظل وعيه فى حالة السـبات، إننى الوحيد فى القرية الذى له الحق فى إعطاء حقن لا يعرف نوعيتها أحد للمرضى... .» (توفيق، لاتا: ١١١)

عاصم هو طبيب يحاول أخذ الثأر من العالم بسـبب الإخفاقات والإحباطات التى واجههـا طوال حياته. إنه رمز للطبيب الفاشـل الذى وصـل إلى مرحلة الجنون. هذه الإخفاقات والإحباطات تعود إلى رؤيته الخاصة. عدم مطابقة الواقع للتوقعات التى يرسم عاصم فى مخيلته ما يسبب له خيبة أمل كبيرة حتى يصل إلى حالة الإحباط. إن تعرضه

لضغوطات من المجتمع المحيط ما يحول دون تحقيق ما يريد السبب الرئيس لحالته النفسية.

«سلسلة طويلة من الإحباطات .. لم أوفق إلى الالتحاق سلك الجامعة ونفيتُ إلى هذه القذرة التى لا تناسب أحلامى وحتى فى الحب.. حتى هنا لم أوفق .. كان رأسى الأصلع ونظارتى السمكية يعوقاننى عن الحصول على الفتيات اللواتى أرغبُ فى أن يشاركن حياتى، كلّ شيء فى الحياة كان يرغمنى على أن أكون ما أرادوه لى.. مجرد فأر أرياف منزو ومنعزل وفقير.. وحين أموت لن يذكرنى أحد ولن يبك على أحد.. وهكذا قررتُ أن أنتقم» (المصدر نفسه: ١١٠)

فالإحباط الناجم عن مصاعب الحياة، والضغوط المهنية، وإرهاصات حركة الحياة التى عادة ما يقف البعض عاجزًا أمامها، ولا يستطيع مواجهتها، وتجاوزها؛ لشعوره بالإخفاق عن التعامُل معها – غالبًا ما يسبب حالة الانكسار والانكفاء، ولعل إخفاق الإنسان فى تحقيق أهدافه رغم السعى الجاد لتحقيقها، ربما يكون من بين أهم الأسباب التى تجعل الشخص منعزلًا ومتقوقعًا، ويعيش هواجسَ سلبية مزعجة قد تضعه فى دوَّامة من القلق والتوتر وهذا من الميزات العامة للطبقة الوسطى فى المجتمع المدنى التى ينعكسها توفيق عبر شخصية عاصم. ولعل من أخطر التداعيات السلبية للإحباط، أن يشيع لدي البعض اليأس والقنوط؛ حيث تسكن الهزيمة دواخلهم، لتنعكس عندهم فى أفكار انكفائية وأعمال انتقامية تبالغ فى جَلْد الذات، وتركز علي اقتناص العيوب، وتضخيم السلبيات، وتثبيط عزيمة الآخرين، لنجد أنفسنا أمام مجتمع مُحبَط ومُحبِط فى نفس الوقت.

من جهة أخرى قام توفيق فى روايته بإتعكاس القلق والخوف من التطورات المتسارعة التى حدثت فى العلوم فى أواخر قرن العشرين وشاهده المجتمع المدنى المصرى عن كثب عبر وسائل الإعلام مثل تلفاز، فى شخصية عاصم فتحى الطبيب الذى يكون نموذجا لخطورة العلم وتكنولوجيا. وهذا يعود إلى القلق السائد فى القرن العشرين الذى شهد حروباً كبرى استخدمت فيها التقنيات والأسلحة التى دمّرت المدن، وأكّدت سطوة التكنولوجيا والعلم دورهما فى صناعة عالم القوة والسيطرة. لهذا يقول ألبرت كامو: «إذا كان القرن السابع عشر هو قرن الرياضيات، والقرن الثامن عشر قرن الفيزياء، والقرن التاسع عشر هو قرن البيلوجيا، فإنّ القرن العشرين هو قرن

الخوف.» (Camus, ۲۰۰۸: ۲۷) على رأى كامو أنّ الحضارة التكنولوجية بلغت أخيراً أقصى درجات الوحشية وعلينا أن نختار فى المستقبل القريب بين الانتحار الجماعى والاستعمال الذكّى للاستكشافات العلمية. هذه الصورة أصبحت ملازمة لمسيرة العلم، خاصة بعد أن تمكن العلم، بفضل التطورات التقنية، من النفاذ إلى قلب المادة وقلب الكائن الحى والتحكم فيهما، مما يعنى القدرة على تغيير طبيعة الأشياء والأحياء. من ثمّ فتحى يستغلّ من علمه كوسيلة لارتكاب الجريمة والانتقام من العالم وهذا عكس القراءة المعلوفة من الطبيب الذى يستخدم علمه للسيطرة على الأمراض وعلاجها تماماً. يعانى الدكتور عاصم بسبب الإحباطات التى مرّت بحياته من المرض النفسى وهكذا قرر أن ينتقم من الناس ويهدد حياة الناس فى الريف بعلمه. «كنت أختار ضحيتى من زوار الوحدة الصحيّة ،وكنت أنفرد به فأحقنه بجرعة صغيرة جدًا من "بنتوثال الصوديوم" .. إنّهم يسمونه مصل الحقيقة لأنه يضعف الإرادة.، وهكذا أبدأ نوعًا خاصًا جدًّا من التنويم المغناطيسى تحت تأثير الدواء.. » (توفيق، لاتا: ۱۱۰)

يحاول الكاتب عرض آخر مستجدات عصره عبر الرواية وفى بداية التسعينات من القرن الماضى كان هناك مخاوف من إنشاء جيوش مستنسخة باستخدام تقنية الاستنساخ، وكانت المخاوف تنصب حول فيما إذا خرجت هذه الترسانة البشرية المستنسخة والتى لا تحمل بداخلها أيّاً من المشاعر تجاه أى شىء حتى الوطن أو البلد الذى يحاربون من أجله. القلق والخوف البشرى من استخدام التكنولوجيا ناجم عن التغييرات التى يمكنها أن تؤثر وبشكل طويل على حياتهم وعاداتهم الاجتماعية مثل الخصوصية الشخصية والتجسس وطبيعة العلاقات الاجتماعية التى تربطهم ببعضهم. يسعى عاصم لخلق إنسان أعظم عبر تغيير الجينات واختباره بالأمراض المختلفة حتى تزداد قوته بشكل صارم؛ أمّا عاصم فهو أصيب بما يسمّونه جنون العلم وهو يخرّب حياة الناس لنيل مراده. «إنّنى أحاول صنع الإنسان السوبرمان لهذا أعرضهم لمؤثرات شتّى من الإجهاد الحرارى والسموم والباكتريا.. إنّ قوة تحملهم تزداد يوماً بعد يوم وعما قريب لن يؤذيهم شىء.» (المصدر نفسه: ۱۱۵)

الإجراءات التى قام بها عاصم فى مختبره السرى تتداعى إلى الأذهان إسم الطبيب

النازى الشهير "يوزاف منغليه" الذى عرف بملک الموت. كان منغيليه مثالاً نموذجياً عن "العالم الشـرير" والذى عرف بتجاربه فى معسكرات الاعتقال، وبالتركيز على التوائم، الذيـن كانوا فى الغالـب من اليهود أو من غجر الروما. على اعتبار اهتمامه بدراسـة علوم الوراثة، تسـبب الطبيب منغليه بأعمال وحشـية قبيحة، كاستئصال الأعضاء من الضحايـا من دون تحذير، وحقنهم بالمواد البكتيريـة المميتة وبتر الأعضاء وغيرها من هـذه الممارسـات. «رفعتُ وجهى فى هدوء لأرى ما هنـاک .. كنتُ قد فقدتُ نظارتى لكنّـى لم أكـن قصير النظر إلى هذا الحد الذى يمنعنى من تبيّن تلک الأجسـاد الآدمية نصـف العاريـة المقيدة إلى الجدران من حولى.. كانت هناک أربعة أجسـاد لرجال فى العقـد الثانى أو ثالث من العمر وأحدهم أقرب لسـنّ المراهقة كلّهم مقيدون للحائط.» (المصدر نفسه: ١٠٧)

من هذا المنطلق يمكن القول إن الكاتب قد دخل فى الأدب العربى نوعاً أدبياً جديدًا سمّى بالروايـة "الطبية المثيرة" (Medical Thrillers) و هو نوع أدبى يسـتغلّ العلوم الطبية كوسـيلة لارتكاب الجرمية. فى هذا الجنـس الأدبى، الكاتب يروى عن جرائم القتل الجماعية المريعة المرتكبة من الأطباء التى تعانى من الأمراض النفسية أو يروى الكاتب من الأمراض الغامضة الفتاكة التى تمكن أن تفشـى فى المجتمع البشرى وتهدد حياة الانسان بالموت.

فضح زيف الادعاءات التى كان يطرحها عاصم بعد أن تلقّى رفعت نتائج عينات الدم التى أرسلها إلى القاهرة لاختبارها. علاء عبد الصمد تلميذ رفعت أرسل رسالة له وقال فيهـا عن نتائج عينة الدم التى أخذها ليحللها فى معمله بالقاهرة. «قمتُ بإجراء تحليل كروماتوجرافـى فى كلية الصيدلة بحثًا عن سموم معينـة وبعد بحث مدقق مرهق وجدنا فى العينة نسبة ضئيلة جدًا ولكنها محسوسة من مادة الباربيتورات.» (توفيق، لاتا: ٩٢)

أما النهاية فهى مؤلمة بالنسـبة لفتحى وزوجته عواطف وذلک بعد أن يكشف رفعت سّـرهما. فتحى وعواطف كانا يخافان غضب الناس ولايسـتطيعان أن يواجها غضبهم، فالهروب من العقاب لم ينفعهما وسيحضران أمام القضاء آجلا أو عاجلا وانتحرا بسبب الخوف والهروب من العقاب واليأس والإحباط النفسى الذى كان قد سيطر عليهما فى

الأخير. كان الانتحار رد فعل تراجيدى ومأساوى لمواقف الحياة المجهدة وهو أمر شائع فى المجتمعات المدنية.

يعتقد غولدمان أن الفنانين الكبار يحققون تماسكًا وتناغمًا شاملا بينهم والمجتمع حيث أعمالهم هى مخطط من رؤية العالم الطبقية لعصرهم. إنه يشير إلى وجود علاقة جدلية بين الأنا الشخصى للفنان والأنا الاجتماعى له، ويعتبر أن الوعى الجماعى هو نتيجة الوعى الأسرى والمهنى والوطنى والطبقى. إنه يرى الفاعل الجماعى المبدع الحقيقى للمنتجات الثقافية، وخاصة الأعمال الأدبية. من ثم، فى الدراسات الاجتماعية، يتم طرح عناصر ذات مغزى كظواهر اجتماعية بحتة بدلاً من الظواهر الفردية. لذلك، نظرًا لأن هذه العوامل تنشأ فى المجتمع، فلا يمكن فهمها ووصفها بعيدًا عن المجتمع والعلاقات الاجتماعية الشخصية. بمعنى آخر، كل ظاهرة فنية وأدبية لها مبدع فردى وتمثل الفكر وسلوك مبدعه، ولكن هذا لا ينفصل عن التأمل وتفكير الآخرين فى المجتمع الذى يعيش فيه الفنان. لذلك، يتم النقد ودراسة الظاهرة الأدبية وفهمها من خلال علاقات الناس فى المجتمع.

النتيجة

نظرا للهدف الرئيسى لدى غولدمان، الذى اعتقد أن هناك صلة بين عالم الأثر الأدبى للمؤلف والفئة الاجتماعية المحددة التى ينتمى إليها المؤلف، فإن رواية أسطورة النداهة هى أيضًا انعكاس لحياة المجتمع الريفى المصرى فى الستينيات. وتوفيق قام بتصوير رؤية العالم وموقفه الخاص حول الأحداث التى رآها فى مجتمعه. يتبيّن ممّا ذكر أنّه تناول فى "أسطورة النداهة" القضايا الاجتماعية بصبغة أدبية وعلى الرغم أنّه كاتب فى مجال أدب الرعب والخيال العلمى ولكن قد تبيّن فى روايته أهمّ المشاكل الاجتماعية فى الأرياف المصرية وهى القضايا المتعلقة بالفقر والعادات الخرافية والحرمان من التعليم. يرى الكاتب أنّ إصلاح المجتمع الريفى يتم عبر توعية الناس وتثقيفهم وأنّ حل المشاكل العالقة ليس بالفرار منها وقبولها بل يحتاج إلى السعى لمواجهتها. يستند الشخصيّة الرئيسة فى هذه الرواية إلى منطق علمى وهذا من أهم الإنجازات البشرية

فـی القرن الماضی الذی تم إنعکاسـه فی الروایة. یعبّر توفیـق عن الآلام الاجتماعیة وهـذا أمـر یحظی بأهمیة بالغـة. إذ إنّ الکاتب قدّم ما کان بوسـعه کمثقّف فی المجتمع وعـالج ما کان یجب معالجته عبر روایة تتناول المشـاکل الاجتماعیة لدی القرویین مما یدفع شـریحة أکبر من القراء خاصة الشباب إلی التأمّل فی الموضوع حیث حاول قدر الأمکان توعیة مخاطبیه علی التبعات الاجتماعیة للخرافات وأیضا المخاوف التی یمکن أن یواجهها المجتمع من التقدم السریع فی العلوم.

المصادر و المراجع

أبوعیاش، عبدالله. (لاتا). أزمة المدینة العربیة. ط۱. الکویت: وکالة المطبوعات.

أبومنـدور، محمـد وجمال محمد صیـام. (۱۹۹۵م). الأرض و الفلاح فی مصر: دراسـة فی آثار تحریر الزراعة المصریة. ط۱. القاهرة: جامعة القاهرة.

أمین، جلال. (۲۰۱۱م). مصر و المصریون فی عهد مبارک. ط۱. القاهرة: دارالشروق.

الأنطاکی، یوسـف. (۲۰۰۹م). سوسیولوجیا الأدب، الآلیات والخلفیة الإیبستمولوجیة. ط۱. القاهرة: رؤیة للنشر والتوزیع.

بوعلی، عبدالرحمان. (۲۰۰۱م). الروایة العربیة الجدیدة. ط۱. جدة: منشـورات کلیة الآداب والعلوم الإنسانیة.

توفیق، أحمد خالد. (لاتا). أسطورة النداهة. ط۱. القاهرة: المؤسسة العربیة الحدیثة للنشر والتوزیع.

الخطیبی، عبدالکبیر. (۱۹۷۱م). الروایة المغربیة. ترجمة: محمد برادة. الرباط: منشورات المکرز الجامعی للبحث العلمی.

رحمانی، أحمد. (۲۰۰٤م). نظریات نقدیة وتطبیقاتها. القاهرة: مکتبة وهبة.

شـحید، جمال. (۱۹۸۲م). فی البنیویة الترکیبیة، دراسة فی منهج لوسیان غولدمان. ط۱. بیروت: دار ابن رشد للطباعة والنشر.

شعلان، عبدالوهاب. (۲۰۰۸م). المنهج الاجتماعی وتحولاته من سلطة الأیدیولوجیا إلی فضاء النص. ط۱. الأردن: عالم الکتب الحدیث.

صالح، ولعة. (۲۰۰۱م). «البنیویة التکوینیة ولوسـیان غودمان». مجلة العلوم الاجتماعیة والانسـانیة "التواصل". العدد ۸. جامعة عنابة. صص ۲٦۹-۲٤٥

صحراوی، إبراهیم. (۱۹۹۹م). تحلیل الخطاب الأدبی. دار الآفاق. ط۱. الجزائر: لانا.

عبدالحنان، محمد. (۲۰۱۷م). «المجتمع المصری فی روایة یوتوبیا لأحمد خالد توفیق». مجلة أقلام الهند (فصلیة محکمة). العدد٤. السنة الثانیة. صص ۸۵-٦۲

عبدالمجيد، محمد سعيد وممدوح عبدالواحد الحيطى. (٢٠١٥م). «التحولات الاجتماعية والسياسية وسمات الشخصية المصرية». مجلة حوليات آداب عين شمس (دورية علمية محكمة). المجلد٤٣. العدد ٢. صص ٤٣٦-٣٦٧

عسكرى، عسگر. (٢٠١٠م). نقد اجتماعى رمان معاصر فارسى. ط٢. طهران: نشر فروزان.

غولدمان، لوسيان. (١٩٨١م). المادية الديالكتكية وتاريخ الأدب والفلسفة. ترجمة: نادر ذكرى. ط١. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.

ـــــــ .(١٩٨٢م). «الوعى القائم والوعى الممكن». ترجمة: محمد برادة. مجلة آفاق. العدد١٠. صص ٢١-٤٥

ـــــــ .(١٩٩٣م). مقدمات فى سوسيولوجية الرواية. ترجمة: بدرالدين عرودكى. بيروت: دار الحوار للنشر والتوزيع.

ـــــــ . (١٩٩٦م). العلوم الإنسانية و الفلسفة. ترجمة: يوسف الأنطاكى. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

ـــــــ . (٢٠١٠م). الإله الخفى. ترجمة: زبيدة القاضى. ط١. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.

محمود، عبدالمجيد. (٢٠١٤م). الفساد، تعريفه، صوره، علاقته بالأنشطة الإجرامية الأخرى. القاهرة: دار نهضة مصر للنشر.

مسعودى، الحواس. (١٩٩٩م). «النصوص الحجاجية». مجلة اللغة والأدب –ملتقي علم النص –. العدد١٤. جامعة الجزائر. صص ٢٨٣-٢٦٠

مشرى، بن خليفة. (٢٠٠٠م). سلطة النص. رابطة كتاب الاختلاف. ط١. جويلية.

منتظرى، آزاده ومحمد خاقانى ومنصوره زركوب. (٢٠١٢م). «النقد الاجتماعى للأدب نشأته وتطوره». السنة الثانية. العدد السادس. تهران: مجلة إضاءات نقدية. صص ١٧٢-١٥١

المصادر الإنكليزية

Camus, Albert. (2008). Neither Victims Nor Executioners. Wipf & Stock Pub. Eugene, Oregon. USA.

Greenberg, Nathaniel. (2018)." Ahmed Khaled Towfik: Days of Rage and Horror in Arabic Science Fiction". Journal Critique: Studies in Contemporary Fiction. Volume 60. Issue2. pp169- 178.

الموقع الإلكترونى

عرب ٤٨، ٢٠١٦م، عثمان بركة:

-www.arab48.com/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9-